الباب الرابع عشر
في سبب موته[1]

ففيه ثلاثةُ أقاويل:

الأول قال ربيع[2] بنُ يونس: لمّا ولي بساط الخلافة أبو جعفر المنصور الدَّوانقيُّ[3] دعا مالك بن أنس، وابن أبي ذئب، وأبا حنيفة ـ ذكر تفصيلُه في الباب السادس، من أراد تمامه فليراجعِ القول الثاني[4] ما قاله عبد الله بن إسماعيل[5] ـ أنّه بعث المنصورُ إلى أبي حنيفة رضي الله عنه، وسفيان الثوري، ومِسْعر، وشريك، وقد عرفوا مرادَ المنصور، يُريدُ لكلٍّ واحدٍ منهم أن ينصبَ منصب القضاء، فزوَّرَ كلُّ واحدٍ منهم في نفسِهِ ملجأً، فلمّا دخلوا عليه، بادرَ مسعر، وأخذ يدَ منصورٍ وقبّلَ، وقال: أيشٍ حالكم يا أميرَ المؤمنين، وحال صبيانكم؟ وكيف شأن نسائكم؟ هل كانوا سالمين؟ فقال لحجّابه: أخرجوا هذا المجنون. فطردوه، وهو يضحك لمُخادعته، ثم قال للثلاثة: ما أَدعوكم إلاّ بخيرٍ إنْ قبلتموه، ثم أخرجَ كتابًا ثلاثًا، فناول أحدَها إلى سفيان، وقال: هذا مَنشورك على قضاء البصرة، فخذْه والحقْها، وناول آخرَ شريكًا، وقال: هذا مَنشورك على قضاء الكوفة، فخذْهُ وامضِ، ثم ناول آخرَ لأبي حنيفة

---

(١) في (أ): في سبب موته رحمة الله عليه رحمة واسعة.

(٢) في (أ): الأول ما قاله ربيع.

(٣) الدوانيقي: نسبةٌ، وكان يلقب أيضًا أبا الدوانيق، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٧/ ٨٣: وكان يلقب أبا الدوانيق لتدنيقه ومحاسبته الصناع لمّا أنشأ بغداد.

(٤) انظر صفحة: (٥٧) الحاشية رقم (١).

(٥) في (أ): فليرجعْ إليه القول الثاني ما قال عبد الله بن إسماعيل.

رحمهم الله، وقال: هذا منشورك على قضاء مدينة[1] البغداد وما يليها، فخذْهُ. ثم قال لحجّابه وجّهوهم معهم، فمن أباه فاضربْهُ مئةَ سَوطٍ. فأمّا شريكٌ فأخذَ منشورَهُ ومضى في أمر القضاء. وأمّا سُفيان فقال للحجّاب: أرجِعُ. فقد خرج المحكمة، ودخلَ بيته، ووضع منشورَهُ في طاقِ بيته، وهربَ إلى اليمن ليلاً وأدركَ السفينة، وتبعَهُ الحاجب، فقال السفيان للملاح: اخفوني لله تعالى؛ يُريدُ الحاجبُ أن يَذبحني. فكتموه ولم يجدْهُ الحاجبُ، ورجع، وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فلم يقبلِ المَنشور، ولم يهربْ، فضربَهُ الخليفة مئةَ سوطٍ، وحبسه، ومات في الحبس من ألم الضرب

والقول الثاني[2] ما قاله ربيع بنُ يونس أيضًا: إنه جمعَ المنصورُ الفقهاء، وفيهم أبو حنيفة رضي الله عنه وهو المفتي في ذلك العصر، فقال لهم: أليسَ الحديثُ عن النبيِّ ﷺ صحيحًا، وهو «المؤمنون آمنون عند شروطهم»[3]؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ أهلَ الموصل شرطوا ألاّ يخرجوا عليَّ، أَحَلٌّ دماؤهم وأموالهم؟ فسكت الإمامُ، فقال واحدٌ منهم: يدُكَ مبسوطةٌ عليهم، فإنْ عفوتَ عنهم فأنت أهلُ العفو، وإن عاقبتَهم فبما يستحقُّون. ثم قال لأبي حنيفة: أجبني، كيف تُفتي؟ فقال: ألسنا في خلافةِ نبوةٍ وأمان؟ قال: بلى. قال: فإنَّهم شرطوا لك ما لا يملكون، وشرطَ عليك ما ليس لك، فإن أخذتَهم فقد أخذتَ ما لا يحلُّ لك، فشرطُ اللهِ تعالى أحقُّ أن يُوفى به. فقال المنصور مغضبًا: تفرَّقوا. فلمّا خرجوا أرسلَ خلفَهُ حاجبًا، فقال عزلتُهُ عن الفتوى، فلينصرفْ إلى بلده، ولا يفتي للناس على أيامه. فبسط على يد الخوارج.

---

(١) في (أ): قضاء مدينتي.

(٢) في (ب): القول الثالث.

(٣) حديث رواه أبو داود (٣٥٩٤) والترمذي (١٣٥٢) وابن حبان في صحيحه (١١٩٩) وابن ماجه (٢٣٥٣) عن أبي هريرة، بلفظ: «المسلمون على شروطهم» وبرواية «عند» بدل «على».

قال أبو نعيم: كتب المنصورُ بذلك الانتقام، إلى والي الكوفة عيسى بن موسى وأمرَ أن يُرسلَ أبا حنيفة إلى بغداد، وقال: لمَّا سمعتُهُ انطلقتُ إلى أبي حنيفة، فلقيته راكبًا، قلتُ: إلى أين يا إمام المسلمين؟ قال: كيت وكيت كذا. فأُذهبَ رضي الله عنه إلى عيسى بنِ موسى، ثم إلى بغداد، وقد تغيَّرَ لونُه. ثم قال: سمعنا أنَّه لمَّا حضرَ عند المنصور ناولَهُ بشربةٍ مسمومةٍ، وأمر بشربه، فامتنعَ الإمام، وأُكرِهَ على شُربِهِ حتى شربَهُ، ثم قام مُبادرًا، فقال له المنصور: إلى أين؟ قال: إلى حيث بعثتني، فمُضِيَ به إلى السجن، فمات فيه[1].

---

(١) كذا في الأصلين ذكر قولين فقط، وقد جاء في كتاب مناقب الإمام الأعظم ٢/ ١٨٣ سبب موته، فلعلّه الثالث، وهو عن الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي حفص أحمد الكبير البخاري قال: دخل الحسنُ بنُ قُحطبة أحدُ قوّادِ أبي جعفر المنصور على أبي حنيفة، فقال له: أنا ممن تعلمُ، وعملي لا يَخفى عليك، فهل لي من توبةٍ؟ قال: نعم. فقال: ما هي؟ قال: أن يعلم الله عزَّ وجلَّ نيَّتَكَ نيّةً صادقةً أنَّك نادمٌ على ما قتلتَ وأخذتَ، وأنّك إذا خُيِّرْتَ بين أن تَقتلَ مُسلمًا أو تُقتل تختارُ قتلَكَ على قتلِهِ، وتجعلُ للهِ عز وجل على نفسِكَ عهدًا ألاَّ تعودَ إلى شيءٍ ممّا كنتَ فيه، فإنْ وفّيتَ فهي توبتُكَ. فقال الحسن: فإني قد فعلتُ ذلك، وعاهدتُ اللهَ تعالى ألاَّ أعودَ في شيءٍ ممَّا كنتُ فيه من قتل المسلمين. فكان في ذلك إلى أن ظهرَ إبراهيمُ بنُ عبد الله بالبصرة من أهل البيت، فأرسلَ إليه أبو جعفر، وأمرَهُ بالمسير إليها للقتال، فجاء إلى أبي حنيفة رحمه الله، فقال: يا أبا حنيفة، شرٌّ، أمرني الخليفةُ بكذا وكذا. فقال: قد جاءَكَ أوانُ توبتك، أما أنتَ فقد عاهدتَ اللهَ ما قد عَلمتَ، فإنْ وفَّيتَ له أرجو أن يتوبَ اللهُ عليك، وإنْ عدتَ أُخذتَ بما مضى من أيامِكَ وما بقي. فقال الحسن: اللهم إنّي أَفي بما عاهدتُ لك، فأوصى وتهيَّأَ للقتل، ودخلَ على أبي جعفر فقال له، واستعفى واعتلَّ، فلم يقبلْ منه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّي لستُ بسائرٍ إلى هذا الوجه، إن كان لله طاعة فيمن قتلتُ في سُلطانك فلي منه أوفرُ الحظِّ، وإنْ كانَ معصيةً فحسبي ما قتلتُ. فغضبَ أبو جعفر من ذلك، ووثبَ أخوة حميد، وقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّا أنكرناه منذ سنةٍ، وتخوَّفنا عليه أن يكونَ قد خالط، فأنا أسيرُ، وأنا أحقُّ بالفضل منه. فسار حميد، وقال أبو جعفر لأهلِ ثقاته: تعاهدوا الحسنَ على مَنْ يدخلُ من هؤلاء القرّاء، أو مَنْ يدخل عليه، ومَنْ هذا الذي يُفسد علينا هذا الرجل. فأخبره أنّه يدخلُ على أبي حنيفة رحمه الله، فدعاه بعلّةِ شيءٍ، فسقاه، فماتَ رحمه الله، وسُقي الحسنُ، فعالج نفسَهُ فنجا. وانظر صفحة (١٠٤) الحاشية (١).

فيوافق هذه الرواية ما قاله في خاتمة «الجامع الصغير»[1] بأن [أبا] جعفر المنصور سقى أبا حنيفة رحمه الله شربةً مَسمومةً، وهو في بغداد، فلمّا شربَ وثَبَ وقام، فلمّا بلغَ منزلَه ماتَ شهيدًا. انتهى.

قال يعقوب بن شيبة: سمعتُ أنَّه تُوفّي في السجن، وهو ساجدٌ.

* ورُوي أنَّ أبا حنيفة يدعو دائمًا: أن يُميتني اللهُ في محبسِ الدنيا. قيل له: ما هذه الدعوة؟ قال: خوفًا ممّا عملتُ في صباوتي، إذ رأيتُ عصفورًا دخل في ثُقبِهِ، فلم أقدرْ إخراجَها، وأَدخلتُ حَجَرًا في فمها، ثم تفقَّدْتُها بعد أيام أنَّها ماتت فيها، فأخافُ أن يحبسَني ربِّي في محبسِ النار ممَّا فعلتُ بخلقِهِ يوم: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

* قال أبو مطيع رحمه الله: رأيتُ جنازةَ رجلٍ غريبٍ في باب طاقِ خراسان[2]، خلفه رجلٌ وأربعةُ رجالٍ يحملونها، فقلتُ لهم: من هذا الميت؟ قالوا: أبو حنيفة. فتبعتُهُ، فلمّا خرجنا من ذلك الباب، نُودي في الخلق، فاجتمعَ أُناسٌ كثيرةٌ، فصلّينا عليه عند باب الحسين، ثم تقدَّمَ رجلٌ فصلّى عليه، فتبعَتْهُ جماعةٌ من بني تميم، وأبو حنيفة قُدّس سره مولىً لهم، ثم دُفن في مقابر الخَيْزران، ثم جاء الحسن بنُ عمَّار قاضي بغداد، وصلّى على قبرِهِ بجماعةٍ، ثم اجتمعَ الناس ساعةً فساعة حتى ملأ حوالي قبره، ثم جاءَ المنصورُ فصلّى عليه بحشمةٍ، ثم كَثُرَ الناسُ يومًا فيومًا يُصلّون على قبره أكثر من عشرين يومًا تشرُّفًا به.

---

(١) كتاب الجامع الصغير في الفروع للإمام محمد بن الحسن الشيباني وهو كتاب قديم مشتمل على ألف وخمسمئة واثنتين وثلاثين مسألة، ولم يذكر القياس والاستحسان إلا في مسألتين. كشف الظنون ٥٦١.

(٢) في (أ): طاق باب.

* وفي رواية عباس الدُّوري[1] رحمه الله أنه قال: بنى المنصور مدينةً، وبنى مسجد الرُّصافة في البغداد، فأرسل إلى أبي حنيفة رضي الله عنه، فجيءَ به، فعرضَ عليه قضاءَ الرُّصافة، فأبى الإمام، وخرج، قيل له: إنْ لم تفعلْ ما أمرَكَ ليضربَنَّكَ وليضربنّ، وتعصي أمر أولي الأمر، قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فرضي الإمامُ بإطاعته ثلاثة أيام، فقعدَ في مجلس القضاء يومين، ولم يأتِ أحد، ففي اليوم الثالث أتاه رجلٌ بآخر، فقال: لي على هذا درهمان وأربعةُ دوانق بقيَّةُ ثمن من نورٍ صفر[2]. فقال الإمام: ما تقولُ فيه؟ فقال: ليس له عليَّ شيءٌ. قال الصفَّارُ: استحلفْه. فقال الإمام: قلْ واللهِ الذي لا إله إلاّ هو. فجعل الرجلُ يقول، وخلّى سبيلَهُ، فأخرجَ الإمامُ من صُرَّتِهِ دِرهمين ثقيلين، فقال: خذْها عوضًا من صفرك[3]. فأخذ الرجلُ، فمضى، فلمّا أَمسى عزلَ الإمامُ نفسَه عن القضاء، ثم جاء إلى منزله، ومرضَ ستَّة أيام، ثم انتقلَ من دارِ المحنة إلى دار الرحمة، رحمة الله عليه رحمةً واسعة.

* قال ابن سمَّاك: لمّا تُوفّي أبو حنيفة رحمه الله وجُرِّدَ للغسل ظهر على جنبه سطرٌ مكتوب ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] وعلى يده اليمنى ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] وعلى يده اليسرى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وعلى بطنِهِ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١] فلمّا وضع على جنازته[4] هتفَ هاتفٌ يقول: يا قائمَ الليل، ويا طويلَ القيام، يا صائمَ النهار، يا كثيرَ الصيام أباحك

---

(١) ربّما كان هذا هو القول الثالث من الأقوايل التي قيلت في سبب موته صفحة (١٠٠).

(٢) في (ب): من ثورٍ صغير.

(٣) في (ب): من ثورٍ صغيرك.

(٤) في (ب): فلمّا بلغ على جنازته.

السيّدُ ما تبغي من جنة الخلدِ ودارِ السلام. ولمّا وضع في لحدِهِ سُمِعَ يقول: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩] كذا في «التقديمة»[١]

قال أحمد بن ميكال: توفّي أبو حنيفة ببغداد في شهر رجب، أو شهر شعبان سنة خمسين ومئة، وهو ابن سبعين سنة، وقد تولّد في ثمانين سنة بعد الهجرة، وقد وُلِدَ في عصر الصحابة، وتفقَّهَ في زمان التابعين.

قال الحسن بن مالك: مدلولُ الأقاويل الثلاثة مشهورٌ في أمر الإمام لانزال نسمعه[٢]، ونتذاكر بما قبلنا.

قال الجوهري: رأيتُ الحسنَ بن عمَّار قائمًا على قبرِ الإمام في مقابر الخَيْزران يبكي ويقول: قد خلّفك التابعون الأفقه الأورع من أنفسهم، وما خلّفتنا شبهَكَ، ولن تلدَ النساءُ مثلَكَ.

* ومن «الإنصاف في ترك الاعتساف»: أنَّ أمراءَ الزمان في آخرِ الدوران يَميلون بالعدل والإحسان، فمن كان في ظلِّهم فهو مصونٌ عن الفتنة بالأمان، فكنَّا نعدُّ سلاطينَ زماننا من الظَّلمة والجورة، فحاشا ثم حاشا من آل عثمان أن يؤمنَ من كان[٣] في سلك العلماء من القضاة الظلمة والمرتشي الباطلة[٤]، وأمثالهم مثل سياسته مَنْ نعدّهم خيرَ الناس من آل عباس بزبدة العلماء المجتهدين، وقدوة الفقهاءِ المتهجِّدين مُحيي السنة والدين إلى يوم الدِّين، سراج الأمة، ومنهاج الملة، وما مثله في الفرش وربِّ العرش، وآنسَهُ بأنس القدس في بساتين الفردوس.

---

(١) في (ب): في التقديم.
(٢) في (أ): لإنزاله فسمعه.
(٣) في (أ): في شاه آل عثمان أن يسوس من مكان في سلك.
(٤) في (ب): والمرتشى البطالة.

* وأعجبُ منه ما نُقل في «التذكرة»[1] أنَّ المنصور المذكور دعا جعفرَ الصَّادق رضي الله عنه من آل النبيِّ ﷺ ليقتلَهُ، وقال لجلاَّدِهِ: إذا أتى جعفرٌ تهيَّأْ بسلاحك، فإذا رفعتُ يدي على عمامتي، اضربِ عنقه. فلمَّا دخل تهيَّأَ بما أمَرَ. فقامَ المنصورُ وعظَّمَهُ وأكرمه، وتملَّقَ إليه وكرَّمَهُ غايةَ الإكرام، وارتعدَتْ أعضاؤه، وأخذَ مُعتذرًا إليه، ثم أرسلَهُ بأنواع الاعتذار، ثم قيل له: ما شأنُكَ تُكرمُهُ وتعتذرُ إليه؟ قال: فلمّا دخلَ عليَّ رأيتُ عصاه صار ثعبانًا عظيمًا يقصدُ أن يلتقمني، كما قصدَ عصا موسى عليه السلام إلى فرعونَ؛ فأكرمتُهُ خوفًا منه.

* * *

(١) تذكرة الأولياء صفحة ٣٤.